الزعتر الحلبي

أبت أمي إلا أن تحملني كيساً من الزعتر الحلبي، قالت: «هذا لابن خالتي جميل في دمشق»، أكدت لها أنه لا وقت لدي لزيارته، ولا أعرف عنوانه، قالت: «هو صاحب فندق السعادة، اسأل عنه تجده»، وحين أحست بتذمري أخذت تسترجع الماضي، ومضت تحدثني عن أيام الطفولة حين كنت أزوره بصحبتها وأنا صغير وألعب مع ابنته رجاء حول البركة تحت شجرة التوت الكبيرة في دارهم بحي الفرافرة، وكم كانوا يأتون إلى زيارتنا في دارنا القديمة بجوار الجامع الأموي، وكم كان يحمل لي الهدايا من محله بالسويقة، ولكنه بعد ذلك انتقل مع الأولاد إلى دمشق، حتى إننا ما عدنا نعرف عنهم شيئاً، كل ما علمناه أن ابنته رجاء تزوجت طبيباً من دمشق وسافرت معه إلى أمريكا، وأنا أعلم أن أمي كانت تتمنى أن أتزوج من رجاء، لتجدد القرابة بينها وبين ابن خالتها، أما ابنه سامر فقد كان عمره أربع سنوات حين انتقلت الأسرة إلى دمشق، ما عدنا نعرف عنه شيئاً، المهم أني في النهاية حملت في حقيبتي كيلو من الزعتر الحلبي الفاخر، ملفوفاً بورق ملون جميل.

وسألت عن فندق السعادة فإذا هو في شارع ٢٩ أيار قبل سبع البحرات قريباً من مصرف سورية المركزي، وتوجهت إليه بعيد العصر، فقد وصلت دمشق ظهراً، وتوجهت فوراً إلى فندق الشام، ونزلت في غرفتي المحجوزة لي، وتناولت طعام الغداء، وارتحت قليلاً، ثم توجهت إلى فندق السعادة، فندق السعادة ليس بعيداً عن فندق الشام، والسير في هذا الوقت في الصالحية ممتع.

دخلت الفندق، وأنا أحمل في لفافة ورقية ملونة كيلو من الزعتر الحلبي الفاخر، في الاستقبال شاب، عرفته على الفور، هو سامر من غير شك، يشبه والده كثيراً، سلمت عليه، وقدمت له نفسي، ثم أضفت:

- والدك جميل هو ابن خالة أمي، أنا من حلب.

علق ببرود:

- أظن أن أبي ذكر مرة أن له ابنة خالة في حلب، فهي إذن، أنا لا أعرف، أنا غادرت حلب وعمري أربع سنوات، وطوال عشرين سنة ما زرتها ولو مرة واحدة، أبي نقل كل مصالحه إلى دمشق، حتى سجلنا المدني والإقامة وكل ما يخص الأسرة أصبح هنا في دمشق.

نظرت إلى مقعد جلدي، قعدت فيه وأنا أقول له:

ـ أرجو ألا يتأخر؟

ـ ذهب إلى البيت لتناول الغداء، ولا أعرف بالضبط متى سيرجع.

صمتُ قليلاً، فقال:

ـ من المؤسف أن لدينا فريقاً من السواح، والفندق مملوء، وليس لدينا غرفة واحدة شاغرة، على كل حال أستطيع أن أدلك على فندق متواضع، وأجرته زهيدة، هو فندق العباسي في سوق الهال، وهو قريب جداً من سوق الحميدية، ربما كان من حوله ضجة ولاسيما في الصباح الباكر، حيث تنزل الخضار والفواكه إلى سوق الهال، ولكنه فندق متواضع وأجرته بسيطة جداً، وميزته قربه من الأسواق ووقوعه في قلب الشام، يمكن أن تأخذ من هنا سيارة أجرة، سيوصلك السائق إلى باب الفندق.

أنهض، أمد له يدي بكيس الزعتر، وأقول له:

ـ هذا هدية من والدتي لوالدك.

ويعلق على الفور:

ـ لاشك أنه زعتر حلبي، كل قادم من حلب لا بد أن يأتي لنا بكيس زعتر.

أناوله الكيس، وأهم بالخروج، وأنا لا أجد ما أقوله، وإذا برجل بدين، يتقدمه كرشه يدخل، أعرفه على الفور، هو ابن خالة أمي جميل، طالما زارنا، وزرناه، ولكنه تغير كثيراً، بطنه امتد إلى أمام، وترهل جسمه، وسقط معظم شعر رأسه، وارتسمت هالات سوداء حول عينيه، وازداد وزنه كثيراً، حتى بدا رأسه صغيراً جداً بالنسبة إلى ضخامة جسمه، أسلم عليه، ينظر إليَّ ملياً، ثم يقول:

ـ أنت أحمد .. عرفتك فوراً، كيف الوالدة؟

وقبل أن يسمع الجواب يلتفت إلى ولده ليسأله :

ـ هل أجريت الجرد المطلوب؟ هات الدفتر.

يضع نظارته الطبية على عينيه، ويأخذ في تقليب صفحات الدفتر، وقد استند إلى منصة الاستقبال، يكاد يوليني ظهره، وهو يقول لولده:

ـ أعط للأستاذ عنوان فندق العباسي، أو اتصل بالفندق واحجز له غرفة.

ويلتفت إليّ ثم يقول:

ـ للأسف الفندق عندنا ممتلئ، ولكن سأحجز لك في فندق

ويقاطعه ولده:

ـ حدثته عنه

ويضيف الأب:

ـ إذن ماذا تنتظر، هيا اتصل واحجز له.

وأتدخل قائلاً:

ـ شكراً، أنا عندي غرفة محجوزة

ويعلق:

ـ أهلاً وسهلاً، دمشق ترحب بك.

ثم يلتفت إلى ولده ليسأله:

ـ هل دققت في جوازات السفر؟ صوّرها كلها، دفتراً دفتراً، ضع جوازات العرب في خزانة، وجوازات الأجانب في خزانة، هل أرسلت البياضات إلى المغسلة؟ لا تسمح لأحد من عمال النظافة بالانصراف قبل التاسعة، أنا ذاهب الآن، سأرجع في التاسعة، ولا تنس السؤال كل ساعة عن أسعار الصرف.

ويلتفت إليَّ، قائلاً:

ـ كان بودي أن أدعوك إلى تناول العشاء عندنا في البيت، ولكن للأسف الزوجة والأولاد كلهم ذهبوا في الصباح إلى بلودان، لا أحد اليوم في البيت، أنا تناولت غدائي في مطعم قريب من الفندق

ويتدخل ابنه:

- مثل عادة أهل حلب، أحضر لك أفخر أنواع الزعتر الحلبي

أعلق:

- أمي في الواقع هي التي أرسلته معي، ألحت عليّ

ويعلق ابن خالة أمي:

- بيتي امتلأ بالزعتر الحلبي، كل قادم من حلب لا بد أن يحمل لي معه الزعتر، على كل حال سلم لي على أمك.

أمد إليه يدي مصافحاً، وأنا أقول له:

- يسرني أن أدعوك إلى فنجان قهوة في غرفتي بالفندق

- أوه، زحمة العمل أنستني أن أسألك، في أي فندق أنت نازل؟

- إلى جوارك، هنا في فندق الشام

- سأكلم مديره، فهو زميل المهنة، لعله يمنحك حسماً، أو يعنى بك

- أشكرك، فأنا مدعو، لن أدفع أي ليرة

- ومن دعاك؟

- وزارة الثقافة.

- وما المناسبة؟

- المشاركة في ندوة عن تغير المفاهيم والعادات والأخلاق.

أطرق قليلاً، ثم سأل:

- وماذا ستفعلون في الندوة؟ هل ستوقفون التغيير؟ هل يمكنكم منعه؟

ابتسمت وقلت له:

- طبعاً لا، نحن سندرس أشكال التغيير وظواهره وقوانينه

- لا بأس، ادرسوا كما تشاؤون، أنتم عليكم الدراسة ونحن علينا التغيير.